رُوح بالضم

قصة قصيرة

بقلم **أسرار باشويه**

لطالما كنا أرواحًا تمر بتجارب في أجسادٍ بشرية عابرة، منذ قديم الأزل. في قواعد اللغة العربية نعلم أنه حيثما وجدت الضمة في آخر الفعل يكون مرفوعًا، وهكذا أيضًا ترفع مكانة كيان الشخص في الفؤاد حين يُضم. ولكن ماذا يحدث حينما لا تضم الـ(روح) سوى في مقتبل الحرف وتسكن آخره.

جارتي روح بثلاث أرواح لم تضم يومًا. زوجها يدعى خالد، ويجيد تخليد نفسه في ذاكرة أرواح روح الثلاث بالقسوة، إذ أن بناته لم يعرفن عنه سوى التكشير؛ لأنها هذه هي طريقته الصحيحة في تربيتهن وحفظهن من الانفلات والانحلال الأخلاقي، فتدليل الفتيات يفسدهن، هذا ما علمه إياه والده، وهكذا تعلم والده من جده. حسب ما يروى بدا أن الامر بات مرتبطاً بعاداتٍ وتقاليد.

كنا ذاك المساء نتناول الأخبار ونحشوها بالضحكات والمزحات، علها تصبح قابلة للبلع، إذ بها من المرارة ما يكفي، وفيها ماهو مدسوس وما هو للتقريع وفيها ما يحمل تلميحاتٍ صغيرة لمغزى كبير.

كانت جارتي روح تخبرني أن زوجها سيتزوج الثانية عما قريب لأنها لم تنجب له ولدًا يحمل اسمه واسم ابيه. وكانت تضحك بملء خيبتها: " آه يا رويدة ... هههه خالد يحبني والله... بس عيلته السبب، هما يلقبوني بأم البنات، يحسبوني بزعل وبحس بالعار، ما يعرفون قد ايش مبسوطة واشوفه كوسام شرف، واصلًا بيني وبينك ما ابغا ولد".

ورغم أنها تقول ذلك إلا أنني أجدها بعد يومين تقول: " تعرفي يا رويدة، مافي مشكلة لو خلفت ولد، تعرفين ماهو وجود الولد بيحفظ ورث البنات، وبعدين نغير جو ونجرب تربية الولد ".

بداية لم أفهم لم هي تناقض كلامها كل يومين، يومًا تريد الولد، ويومًا لا تريد، رغم كل ذلك، هناك شيء من الألم لا يزول مهما ضحكنا، لا زلت أحس به فيها، ويؤلمني أنني ما أستطعت أن أخففه أو أزيله عنها.

كان يوم أثنين، حين دعتني لمنزلها لأن خالتها جاءت من قرية بعيدة لتحل عندها يومين، وما لبثت إن فُتحت أمامي سيرة انجاب روحٍ لولد، وحكت خالتها شيئا عجابْ، لم اسمع به من قبل: " يا بنتي، في ولي في قريتنا، اسمو علي، يعالج كل مشاكل الإنجاب، حتى بنت خالتك، نور، ما كانت تجيب صبيان، كل خلفتها بنات، لين راحت له وخلفت بعدها عمر، و حتى العقيمات يروحو له وبعد مدة يصيرو حوامل، وخلفتهم أولاد".

بت أفهم قليلًا ألم رُوح، يلزها الجميع بالموضوع، وباتت لا تخرجه من بالها، لتعيش صراعا بين ما تريد وبين ما يريدون. وتوقعت أن تكون اجابة رُوح رفض اقتراح خالتها ، إذ الايمان بالامور التقليدية ليست من صفاتها. بيد أني رأيتها تسأل بلهفة خجولة، عن المستفيدين من أقربائها. وبعد مدة الصمت، التفتت خالتها إلي تسألني: " أنتي متزوجة يا بنتي؟ ".

أجبتها بالنفي، لكوني أرملة، فرمقتني بحزن لا اتوق لتفسيره. غير أن منابع الأحزان أحيانًا سخيفة، لا يجدر بنا تقصي أثرها، إنما التربيت عليها لتهدأ.

لم تعد رُوح كما عهدتها، باتت متمسكة بأملٍ ما، وأنا لا أحب التمسك بالآمال الضعيفة، لكنها بدت لروح انقاذاً لزواجها. وكما انني لحظت فيها حبها الكبير لزوجها وتمسكها به، والحق يقال، زوجٌ كخالد هو زوجٌ جيد، لم يقصر اتجاهها بشيء، ويحبها حبًا جمًا، ولكنه يفتقر للقليل من الأبوة الرحيمة مع البنات.

ظننت أن خالة روح ستعود لقريتها وحيدة، إذ أفاجأ بروح تطلب منّي أن أعتني ببناتها، فأنا أمرأة أعيش وحيدة وبناتها يحببنني واحبهن جدًا، ولا يطقن القرية. ولكن سبب ذهابها أذهلني، لقد كانت مصرة على الذهاب للحكيم علي، وهذا جعلني، أتساءل هل لهذه الدرجة يتحكم بنا الخوف والقلق؟ لدرجة أننا ننقاد وراء أدنى فكرة توهمنا انها ستنقذنا. لكن ما أثار

دهشتني أكثر هو أنها لم تخبر زوجها عن زيارتها للحكيم علي، وأخبرتني أنها ستذهب معه ومع خالتها بحجة أنها سترى جدتها، وهو سيرى والدته.

ولأننا لا نفكر وحدنا كما نظن، بل إن أفكارًا أخريات تهمس في أذوننا بأقسى الكلام، ونظن أنه نحن، فإن ما كان يهمس في أفكار روح، شيءٌ أكاد أفهمه، لأنني مررت بأمرٍ مشابهٍ له في حالاتٍ أُخر.
مضى الأسبوع سريعًا، ذهبت فيه روح بروحٍ عالية ومعنوية مرتفعة، وآمالٍ صاعدات لعنان السماء، ولكنها عادت بشكلٍ آخر. لا يفهم زوجها سر هذا البهوت، تكاد روح تبدو من غير روح. حتى أنها لم تضم بناتها حين وصلت الى بيتي. شكرتني بشكل عابر، ومضت لبيتها معهن في هدوء، كما لو أن ما سكن روح، روحٌ أخرى خنوعه. أين روح التي كانت بشوشة وكانت تفيض بالأمل؟ لم تسكن لي ساكنة، وشغلت تفكيري طوال ذلك النهار، فهي ليست جارتي فحسب، بل جارة قلبي التي أحبها، فهي التي جعلتني اتخطى موضوع وفاة زوجي. نحن لا ننسى الأيادي التي تطبطب وتلملم جراحنا، إذ في ذلك الوقت تبدو تلك الأيادي ملاكاً طاهرًا لا يدنس. ستبقى روح دوماً بالنسبة لي ذلك الملاك.

لم ألبث بعد حتى وجدتني أطرق بابها، فمنذ سألت ابنتها حور قالت لي أن والدتها لم تغادر السرير ليومين، وحين شددت في أسئلتي، لمحت الحيرة في وجهها. وذلك استدعاني لأدخل وأسمع اخبارها منها. حين دخلت شعرت بالمنزل خاويًا من روح، ثم ولجتُ حجرتها التي احتواها الظلام، ووجدتها منطوية في سريرها، لم تكن نائمة، بل كانت متكورة كالجنين، ندهتها ثلاثًا ولم تنتبه إلي. ما حكايتها؟. ندهتها في الرابعة، فبدت أخيرًا كمن عادت من مكان بعيد، يا ترى أين كنتِ يا روح؟

ندت عنها ابتسامة صفراء، لم تكن ابتسامتها، سألتها: " الدنيا بخير ولا كيف، فيكي شي؟ ".
" ههه، لا يا رويدة ما فيني الا كل خير، بس تعب الطريق بالسيارة، أنا تعبانة شوية".
ومع آخر كلمة، علمت أن لا شيء بخير، ما الذي جرى كي تصاب تلك الروح بالانكسار والتمزق؟ تذكرت حينها مسألة الحكيم الذي ذهبت إليه، الحكيم علي، وسألتها، وهنا لم احتج الى جوابها لفظيًا، أجابت نظراتها ورأيت في عينيها حكاية الفزع، والترويع، لم اعلم كيف للعين أن تروي حكاية صاحبتها دون كلمة. ضممتها، لأني أكثر من يعلم أن هناك آلامًا لا تروى، وتحتاج لعناق بلسميٍ يبدد كل ثناياها.

وأجهشت رُوح كالمطر، ثم رددت : " عشان الولد... كله عشان الولد يا رويدة ".
الولد؟ لأجل أن تنجب ولدًا تصبح هكذا؟ أنا لم افهم القصة بعد. لم أعرف بعد ما يجب أن أفعل لها، ملعونٌ هذا العجز الذي يكبلنا. بيد أنها لم تقل شيئًا، وروت بعض المشاكل التي حدثت في طريق العودة مع زوجها خالد، والعجيب أنها هي دومًا التي اعتادت أن تمدح خالد ولا تشتكي كثيرًا سوى من المشاكل التي تحمل عيارًا ثقيلاً. لكنها تشتكي منه الآن لسبب يكاد يكون سخيفًا جدًا.

لم أدرك أنها جعلتنا نتخطى الحديث عن الحكيم علي من القرية، سوى حين عدت لمنزلي. مر اسبوعان، أرسلت روح لي بعدها ابنتها الصغرى ثريا، وثريا فتاة تحب الحديث، عكس أخواتها حور وسرور، لذا استغللت الأمر الذي أُرسلت فيه ثريا لأجله للاطمئنان على والدتها، وسألت ثريا: " ثريا يا حلوة، قوليلي كيف ماما وبابا في البيت؟ أمورهم طيبة؟ ".
" ايوا، اليوم قالوا بيروحوا المستشفى عشان يمكن ماما بتجيب لنا بيبي" .
" ماشاء الله، طيب قوليلي ماما بخير صح؟ ولا لسا تعبانه؟ ".
وهنا قرأتُ في وجه ثريا الاستياء، هذه الفتاة مستاءة من وضع والدتها جدًا:
" هي ماما بخير، بس ما تكلم أحد ودايم تبغى تنام، بس تقوم تطبخ لنا، وترجع تنام".
ثريا لم تكن بهذا الاستياء من قبل، هي أكثر بنات روح حساسية للأجواء العامة، اردفت: " حور قالت لنا أنا وسرور إنه نحن غلطنا ومفروض ما كان نسيب ماما تروح القرية من دوننا، وسرور قالت انه اكيد عملوا في ماما حاجة خلتها مو مبسوطة وتعبانه ".

ودعت ثريا، ولكن حديثها الأخير ظل يراودني، وأثار داخلي جيشًا من الشكوك، فحور عمرها ١٣ و اختها سرور عمرها ١١ وثريا ٩، كيف لفتياتٍ في عمرٍ كهذا أن يلقين اللوم على انفسهن، وأن تبدو آثار ألم أمهن ممتدة فيهن بهذا الشكل الواضح. يبدو أنه مهما حاولت روح الانعزال، أرواحها الثلاث سيشعرن بها على الدوام.

مضت ٥ أشهر سريعًا، وروح حامل بولد، الكل سعيد، وزوجها خالد سعيد، وعائلته ستطير من السعادة. وحدها روح من لم يظهر على وجهها أثار الفرح، وامتدادًا لهذا الشعور، قد طال الأمر بناتها، إذ سمعت خالد يوبخ سرور بينما كانت تقول وهو خارج من المنزل : " أصلًا يا ليت ماما ما حملت بالولد، اصلًا ما نبغاه اذا ماما بتصير دايم نايمة وتعبانة".

" الولد اللي حيجي أحسن من أمك ومن عشرة زيك، ويلا انقلعي لجوا ".

يمكنني تفهم أنه قال كلامه في غضب، ولكن لا يمكنني أن أفهم كسره لخاطر سرور، وهي التي لم تقل شيئاً سوى أنها عبرت عن خوفها وقلقها على أمها.

مضت التسعة الأشهر، وفي كل مرة أزور روح أجدها نائمة، قلة هي المرات التي اجدها مستيقظة ، تتصنع حينها وجوها لم يكن من بينها وجهها المألوف. جاءت ولادتها، الكل يحتفل بقدوم الفتى الذي أسموه (علي)؛ تيمنًا بالحكيم الذي ساعد في شفائها. احتفلوا به كما لو أنه العيد. بيد أني لحظت أمرًا وكتمته في نفسي، إذ ليس في عائلة خالد أو روح، شخصٌ أسمر، بينما هذا الفتى جاء أسمرًا بشكل واضح. إلى أي مدى قد يجعلنا الفرح في عمى عن الحقيقة. بعد انتهاء نفاسها، زرتها كعادتي، وقد لحظت فيها الاشمئزاز والاكتئاب الدائمين. هل يعقل أن يكون هذا اكتئاب ما بعد الولادة؟ لكنني حضرت ولاداتها ولم تكن هكذا، كانت أكثر حياة وبهجة، ما الذي أختلف الآن؟

في مجلس كنت فيه مع واحدة من جاراتنا، ألقت عليها سؤالها: " يعني صدق يا روح للحين مو مصدقة إنه فعلًا الولي علي كان عنده الحل، بس ما قلتيلي اش اعطاكِ يعني؟ هل قرأ أو أعطاك شيء معين؟ عشان عندي وحدة بنصحها فيه".

إذ بها ترد بعنف: " لا ! لا تقولين أو تنصحين أحد فيه ".
" ليه؟ ".
" بس كذا ".
عقدت حاجبي في تساؤل عجيب، فمنذ متى روح لا تحب الخير لغيرها؟ حتى إذا ما صاح رضيعها سمعتها تتمتم : " الله يلعنهم، وياخذهم واحد واحد".

تغيرت روح، لم تكن هكذا من قبل، أمرٌ طبيعي أن يتغير الإنسان، وأن يمر بمراحل الهدم والبناء، ودومًا ينجو، الا أن روح كانت دوماً تصرخ دون صوت. صراخ صامت في تعابير وجهها وتصرفاتها وأفعالها.

مرت سنة وكبر الولد. طفلٌ أسمر أجعد الشعر لا يشبه أخواته ولا أباه بشيء. صحيح أنه أخذ ملامحه الرقيقة من أمه إلا أنه بقي لا يشبه عائلته في شيء.

قلت لروح ذات مرة بدافع الابتهاج: " كيف شعورك إتجاه انه أخيرًا جاكم ولد؟"

" دامه ولد مو مهم، جاهم الولد اللي يبغوه ". وهذا كان تعليقًا غريبًا جدًا، وغرابته كمنت في التوضيح بعدم الأهمية.

توالت الأيام، وبت اسمع صياح ومشاكل جارتي، وهذه المرة ليس زوجها السبب، بل هي التي تفتعل كل ذلك، وكن بناتها يلجأن لمنزلي كلما احتدت المشاكل.
سألت ثريا على انفراد بعيدًا عن اخواتها: " ماما وبابا بخير ؟ " .

هذه المرة ثريا لم تعرف كيف تصوغ الكلام، ولكنها حاولت أن تعبر قائلة: " هو كلو من علي، عشانه ما يشبه بابا ويشبه شوية ماما، ومو زينا، وماما تصيح في بابا وتقوله انه كل شيء صاير بسببه، وانها مو مسامحة اهله ولا اهلها ولا احد ".

" طيب وبعدين ؟ "

" بعدها ماما حاولت تجرح نفسها اليوم، وبابا قالنا نروح لعندك، وانا خلاص ما صرت احب علي كل المشاكل بسببه "
" لا يا حبيبي، علي ماله ذنب، علي أخوكم وضروري تحبونه، وخلاص لا تاخذي هم أنا بشوف ماما وإن شاء الله كل شيء حيكون تمام".

لسبب ما، شعرت أن من واجبي أن أساعد روح في التغلب على صراعاتها النفسية. ولسبب ما تذكرت زوجي، أنا امرأة عقيم، كانوا ينصحونني بالذهاب للحكيم، عله يساعدني، واتذكر جيدًا أن زوجي كان حريصًا على التواجد معي اثناء تلقي العلاج، وحتى أننا جربنا الذهاب معًا لبعض الحكماء، كما يدعون، والبعض منهم كان يتصرف بغرابة، فمرة أعطاني أحدهم قطعة مبللة لا اعرف ما المحلول الذي سكبه فيها طالبًا مني وضعها ما بين فرجي، وكان زوجي يغضب ويجعلنا نرحل فورًا من المكان.

لذا كنت متفاجئة جدًا حين علمت أن الحكيم علي حل معضلة عدم انجاب روح للولد. أما اليوم أنا اشاهد روح ترحل شيئًا وشيئا عن كينونها، وتصبح مجرد جسد لا تسكن فيه، وتكمل حياتها كأداة تربي، وتنفذ ما يطلبه الجميع منها.

وبشكل ما، حين أفكر في علي، أحيانًا يراودني الشك، هل زوجها حقًا أبوه ؟
وكل العلامات تدل على أن علي دخيل.

لا احد يتحدث أو يتحرك، الجميع سعيدٌ بكونه ولد، يبدو أنه لا يوجد ضرر، سوى أن شخصًا بات يسكن في نهاية الأمر، بعد أن كان مضمومًا.

أحلمي ولكن!

قصة قصيرة

بقلم **فاطمة باصهي**

لا أظن أني بحاجة للكتابة عن نفسي فلا توجد تلك الأحداث الشيقة لفتاة في الواحد والعشرين من عمرها؛ فترة قصيرة لخوض التجارب إلا أنها فترة خصبة مكتظة بالأحلام.

كنت أرعى أحلامي على مهل وأتقمص دورها في مواساتي أحيانا إلا أني أدركت مؤخرا أن للأحلام مدة ثم تتغير صورتها إلى أحداث أخرى وأشخاص آخرين وتتجزأ مسمياتها إلى مفردات أخرى وتباع أغلبها في ساحة الذكريات.

سمعتُ أمي يومًا تنهي محادثتها مع جارتها بعبارة "بنات هذا الوقت يفعلن مايحلو لهن" كنت دائما ما أسمع هذه العبارة في تجمعاتِ النساء التي من المفترض أن تكون هادفة لكنها على الأغلب تكون متنفسًا لهن من أعباء المنزل وطلبات الأبناء، فعندما أنهتْ أمي المحادثة سألتها

مع من كنتِ تتحدثين؟

أجابتني

-"مع جارتنا أم أسماء، هل تعلمين أن ابن الخالة فاتن تقدم لابنتها ليخطبها ورفضت! .

من يرفض ابن الخالة فاتن، الرجل المسؤول الخلوق والذي لايفوت الصلوات "

ضحكتُ في نفسي قليلًا لأني أحب أسماء وطريقة تفكيرها وكنتُ مستعدة لأن أدافع عنها في أي لحظة.

فتابعت أمي حديثها

-"تقول أن أسماء تريد أن تكمل تعليمها الجامعي ولا تريد أن تتزوج الآن، حقًا كم هي حمقاء ماذا ستفعل لها الشهادة عندما تصبح وحيدة تجر خيبات العنوسة".

لم أناقش أمي في ذلك الموضوع رغم انحيازي لجانب أسماء لأني كنتُ أنوي أن أناقشها في إختيار تخصصي الجامعي إلا أن بعد هذا الحوار القصير أصابني مغص في معدتي فتراجعتُ وعدتُ إلى غرفتي التي تتوسطها مرآة كبيرة، كانت عريضة و طولها يفوق طولي كنت قد اشتريتها لأني أحب أن أرى مظهري كاملًا لكنها لم تعد تسعني اليوم فقد كبرتُ، كبرتُ كثيرًا كما قالتْ جارتنا أم سامي. حدقتُ كثيرًا في المرآة تساءلت ما الذي يجعل الأمهات لايفهمننا؟! لماذا يردن منا أن نعيش مثل ماعشن ولماذا لا يحترمن الاختلاف ؟!

ثم تذكرتُ سريعًا حديث أمي عن ماضيها وعن الطريقة التي تزوجت بها، أخبرتني أنها لم تكن تعلم بموعد زفافها إلا عندما رأت الثياب الجذابة تملأ نصف الحقيبة التي كلما أُقفلت فُتحتْ مجددًا ليس لكثرة الأغراض بل لإنتزاع غرض مهم وبيعه وجلب آخر أهم. أخبرتني أنها لاتمتلك من المجوهرات الكثير وأن أمها – جدتي-أعارتها حزامًا ذهبيًا لتلبسه أمام الناس ثم ترجعه في اليوم التالي.

قلتُ لأمي لمَ لم ترفضي الزواج خاصة أنك في الخامسة عشر أي مازلتِ صغيرة ؟ أجابتني بنفس العبارة "أنتنَّ بنات هذا الوقت تفعلن ما يحلو لكن أما نحن ليس لنا مجال".

قلتُ لها لكن هناك مجال للأحلام اليوم ألا ترين يا أمي أن الشمس تشرق كل يوم لتمنحنا فرصة جديدة!.

قالت أمي بنبرة ساخرة أنها قد باعت الأحلام وأن أترابها فعلوا كذلك وأنَّا نحن – معشرالجيل الجديد- سنفعل كذلك عندما نتزوج وختمت كلامها قائلة "ابنتي، ستتغير أحلامك عندما تنضجين وستعلمك الدنيا أن للأمنيات صوراً عديدة لاتتمحور حول الجانب التعليمي والمهني فقط فهي كطاقة الشمس تُمنح للجميع ولكن لكل منا طريقته الخاصة في تفسيرها واستخدامها وفق احتياجاته ورغباته".

وأنا هكذا أحدق في المرآة، فهمتُ حقيقة حجم الإختلاف بين الجيلين وحجم التناقضات تساؤلات جمة تحتاج إلى إجابة وأنا هكذا متسمرة في مكاني قطع تخيلي صوت الجرس فذهبت لفتح الباب بإذا بأخي الصغير ينفجر بالبكاء، سألته مابك عزيزي؟ تجاهلني وأكمل طريقه إلى مكان يدس فيه خيبته ويروي فيه قصته من غير أن يتكلم، تجاهلني كموطن غريب يمر فقط عبره إلى واحات رحبة إذ صرخ بأعلى صوته متنقلًا بين غرفة وأخرى "أمييييييي".

تساءلت ماذا لو لم تكن أمي هنا ماذا لو لم تتبرع أمي ببعض حصتها من الحياة ماذا لو أكملت طريقها وحققت أحلامها وتركتنا عند جارتها صباحا وانكبت فوق مستقبلها مساء ولم تحكِ لنا حكاية ماقبل النوم وذلك لأن لديها موعدًا في الصباح الباكر؟ هل يا ترى كنا سنعرفها؟ وهل ستصبح هي موطننا إذا ضللنا الطريق؟ وهل سنجد من يلملم الدمع المتساقط ومن يسكن الصوت المرتجف غيرها؟ أخذني الوقت كثيرًا وأنا واقفة عند باب المنزل أغلقته سريعًا وكأنني أستوعبتُ مسالة في مادة الفيزياء وأخذتُ أهرع في كتابة الجواب. ذهبت سريعا أجرُّ الاسئلة والإجابات معًا إلا أنها في منتصف الطريق _فور وقع وجهي في المرآة التي في صالة المنزل _ترددت وتشتتت؛ وكأنما هنالك قانون جديد قطع استرسال الحل، نظرت في المرآة يتوسطها وجهي- هنالك في المرآة رأيت صديقتي سعاد الطبيبة وصديقتي أفنان المترجمة ووصديقتي أحلام المحاضرة الجامعية. رأيتهن جميعًا ورأيت أبناءهن وبيوتهن العامرة ورأيت أحلامهنَّ ورأيت الأيادي السخية الداعمة حولهن فاتسعت حدقة عيني وازداد نبض قلبي وتنفستُ الصعداء وقلتُ لنفسي ولصديقتي أسماء ولكل الفتيات يافعات الأحلام، "نحن نقيض السؤال الأول هنالك جواب آخر بين الأسطر وبين القصص

وفي آخرالنص لا ينتمي للقانون القديم قانون الجدات والأمهات ولا ينتمي للقانون الجديد – قانون اللهث فقط وراء الأحلام -هنالك حل وسط يلبي رغبة الجانبين وتقصد به الغايات وتستظل تحته الأمنيات وتلبى به المسؤوليات عنوانه يقول "عشن الحياة وأحلمن لكن لا تجعلن الأمومة تنسيكن أحلامكن و لا تتصدقن بالعمر كله من أجل الأحلام هنالك مسؤولية أعظم وأجل تعرف بمسمى الأم".

ولكن هل سيدعم مجتمعنا قانون الوسطية هذا وهل ستجد الأحلام داعم يجددها أم سيُحكم عليها بالهلاك حتى تتغير صورتها كما قالت لي أمي؟!

إبن شمس

قصة قصيرة

بقلم **إسماعيل نضال**

وُلد آدم عام 1985 لأم محبة للحياة والكتب وأب بارد وبعيد. كان يعيش في مدينة كريتر المعروفة بصخبها وحيويتها. وكانت أمه واسمها شمس طيبة، حنونة، تعشق الضحك والتسكع في الشوارع والأسواق وكانت تأخذه معها دائماً في نزهات لطيفة وغير معهودة أما أبوه فقد كان مهندس نفط يعمل في مدينة أخرى ولا يراه إلا كل عدة أشهر.

ترعرع آدم على يد أمه ونما جذعه واشتد تحت شعاعها. كان يشبهها شكلاً ومكنونًا، فنشأ محبًا للكتب والمعرفة، كثير الحركة والضحك. ولم يكن يناديه أحد أبداً باسمه في الحي فقد كان ابن شمس وكان يسعد دائماً أن يربط ذكره باسم أمه. كان محبوبًا في الحي وخاصةً من العجائز فقد كان

يُقبل على مساعدتهم دائماً وتُقابل مساعدته بين الحين والأخرى بالحلوى الذي كان يقبلها بكل سرور. كانت توبخه أمه كلما اكتشفت ذلك قائلة: "مش قلت لك إنه لما نفعل خير لازم ما نأخذ شي عشان يحتسب أجرنا عند الله ولو تشتي حاجة حالي كلمني وأنا بجيب لك ياته لا تكون تأخذ من أحد!!". كانت هذه دائماً الكلمات الذي ترددها أمه بنبرة حازمة وهي تقرص أذنه بحدة خفيفة. كان آدم يبكي كلما حدث ذلك ليس بسبب ألم القرصة ولكن بسبب شعوره باستياء أمه منه أو ربما كان يفعل ذلك متعمدًا لأنه يعلم أنه أمه ستحتضنه بعدها.

ذات يوم أثناء رحلة من رحلات تبضعهم الصباحية القصيرة، وأثناء انبهار آدم المتكرر بنوافذ الفاملت العدنية الذي كان يبحث عنها في واجهات ونوافذ كل العمائر، امتد بصره للأعلى قليلاً ونظر إلى الشمس لوهلة، تعلو محياه نظرات الحيرة وسأل أمه: "أماه ايش بيستوي للأرض إذا ماتت الشمس؟". تفاجأت أمه من السؤال، لكنها أخفت ذلك بابتسامتها المعتادة وبعد وقت قصير وكاد صبر آدم أن ينفذ حين أجابته امه وهي تداعب راسه "لا تقلقش يا حبيبي الشمس ما تموتش." ضحك آدم بفخر كأنه اكتشف سرًا وقال ببراءة الأطفال المألوفة: "يعني انتِ كمان ما بتموتي" وركض بخطوات مبهجة إلى وجهتهم التالية.

كانت حياة آدم مشرقة لكنها مثل أي حياة أخرى لم تخْلُ من السواد الذي كان يغلّف حياته كلما عاد أبوه إلى المنزل. فقد كان أبوه متحجر القلب لا يعرف التعبير ألا بيديه. وكان دائماً ما يجد أتفه الأسباب لضربه، مثل خروجه حافي القدمين للحي أو إسقاطه لبعض الطعام أثناء الأكل. أصبح عنف الاب قابلاً للاحتمال من قبل آدم فقد اعتاد عليه إلى حدً ما ولكن ما كان لا يُحتمل بنظره هو مساس أبيه لمقدساته.

كان أبو آدم يضرب أمه شمس أيضًا على صغائر الأمور. كان يضربها كلما حاولت أن تحمي آدم بجسدها من بطش أبيه وقسوته. كانت تصرخ قائلة: "حرام عليك، حرام عليك جاهل!!" في محاولات حمايته من أبيه لكنها لم تكن تنبس ببنت شفة عند ضربه لها وكلما سألها آدم لماذا لا تدافع عن نفسها مثلما تدافع عنه تبرر قائلة: "هذا زوجي مينفعش" كان يستشيط آدم غضبًا غير قادر على إدراك معنى ما تقوله. لكنها كانت ما تلبث أن تغير الموضوع بسلالة، مخمدًة غضبه بأحاديثها اللطيفة وضحكتها. كان هذا حلها الوحيد في نهاية المطاف لإنها لم تكن تستطع ان تخبره حقيقة انها طلبت من أهلها عدة مرات إنهاء هذا الزواج لكنهم كانوا يرفضون ذلك مرددين عبارات مثل "مفيش للحرمه مكان الا بيت زوجه" او "لازم تصبري كل الزواجات كذا".

وفي صباح أحد الأيام وكان قد جلس آدم لتوه الى مائدة الطعام في غرفة معيشتهم التي يُفتح بابها على بلكونة صغيرة، يختار الجلوس بمحاذاتها دائمًا. بعد أن ساعد أمه في إعداد الإفطار كما

يفعل كلّ صباح، فخورًا بنفسه على هذا الإنجاز اليومي الصغير، جلس أبوه مقابلاً له حاجبًا بذلك منظر السماء الخلاب الذي يستمتع به عادةً. لم يتجاسر على قول أي شيء لأنه يعلم أنه سيضرب إذا فعل، فاكتفى بانتظار تقديم أمه للطعام. بدأوا بالأكل. بعد تذوق أبيه للقمة الأولى امتعض وجهه ورمى بصحن الفاصوليا على الأرض قائلاً: "الفاصولياء تافلة بلا طعم". تسللت نظرة ازدراء وغضب لعينيّ آدم والتي حاول خوفًا إخفاءها بسرعة دون جدوى، فقد لاحظ أبوه نظرته. علت وجه آدم نظرات الرعب التي سرعان ما تبعثرت بعد أن صفعه أبوه في وجهه، موقعاً إياه من فوق كرسيه، ارتطم آدم بالأرض وبدأ بالبكاء. وعندما كان أبوه على وشك أن ينهي ما بدأه تسللت أمه بينهما، مكونةً جداراً تحمي به آدم، لكن هيهات فأبوه لم يكن يملك أي نية للتوقف فضربها بدلاً عنه واستمر بضربها حتى كادت قواه أن تخور. كان آدم يشاهد عنف أبيه بغضب ممزوج بالخوف ولأول مرة وقف محاربًا خوفه وحاول أن يوقف أباه، متمسكًا برجله، صارخًا بأعلى صوته: "لا تضرب أمي".

استيقظ آدم ليجد نفسه في فراشه في أجواء تدل أن الوقت قارب منتصف الليل. وما كاد أن يتحرك حتى شعر بألم جعله يتلوى ويصرخ. دخلت أمه مسرعة "آدم لا تتحركش" قالت له بينما كانت تتفقد جسده بأناملها وتابعت قائلة بنبرة حزينة: "أبوك زبطك ببطنك، انتبه تسوي حاجة زي كذا مرة ثانية". نظر لها آدم، متجاهلاً تحذيرها والدموع تسيل من عينيه وقال: "أماه أنا لازم أكون قوي، لازم أكون قوي" تنهدت أمه تنهيدةً طويلة وقالت: "أنت قوي" رد آدم مستنكرًا ما قالته بصوت متحشرج: "لا لاا أنا ضعيف، ضعيف لو كنت قوي ما كان بقدر أبي يضربك" لكنها ردت مؤكدةً على كلامها: "أنت قوي لأنك تفكر فيبي، لأنك طيب، أبوك ممكن يكون قاسي بس هو مش قوي أنت القوي". وفي أثناء حوارهما هذا اشتدت الحمى على آدم، غير قادر على فهم ما قالته أمه، أعاده جسده مرغمًا إلى النوم.

مرت السنوات وظل آدم يندب ضعفه وقلة حيلته حتى أصبح بعمر ال١٧ وتدريجياً ازداد قوة وورث ضخامة أبيه التي لطالما كانت تخيفه. أصبح آدم أهوج، دائم الغضب، يفتعل الشجارات بالحي.

اشتد الصراع بينه وبين أبيه كلما عاد من سفره. وفي مساء يوم ممطر كان نادرًا ما يحدث في عدن، تعاركا. ولم يكن آدم يضرب أباه ولكنه لم يعد يدع نفسه تُضرب. كان يكتفي بصد ضرباته ودفعه بعيداً عنه. لكن في تلك الليلة كان الاثنان كالثِيرَان الهائجة لدرجة تعجز فيها عن التفريق بين الجلاد والضحية. وفي ظل هذا كله حاولت شمس باكية أن تتدخل، فانتهى الأمر بآدم أن أصابها برأسها من غير وعي منه. توقف الاقتتال في تلك اللحظة وعاد آدم إلى وعيه. مدركًا فداحة ما فعله، حاول أن يطمئن على أمه لكنها دفعته في صمت، ارتدت عباءتها وخرجت من المنزل. امتلأ تصحيح قلب آدم بالندم وظل مترددًا حول ما يجب عليه فعله. عندما رآه أبوه في هذه الحالة صرخ عليه قائلاً: "الحق بأمك". لم يكن ما قاله الاب دليل اهتمام بالأم لكنه استاء على الأرجح لخروجها هكذا دون إذنه.

لم يبال آدم فقد كان يريد اللحاق بها على أية حال. بدأ بالركض، يتلفت يمينًا ويسارًا، باحثًا عن أي شيء يشبه هيئة أمه تحت المطر. وبعد بحث استمر حوالي الربع ساعة، رأى مجموعة من الناس ملثمين، يصرخون في بعضهم البعض. هرع آدم أليهم، ليتفاجأ بوجود سيارة واقفة، امرأة مشقوقة الرأس وأرض مضرجة بالدماء. فزعَا أقترب من المرأة الملقية على الأرض، احتضن رأسها بأيدٍ مرتعشة وصرخ بصوتً مرتجف "أمي أمي". مشلولً جسده، غير قادر على تحمل هذا العدم الطارئ الذي شعره به ينبثق في خلده، استسلم آدم للنحيب.

ساعات مرّت لا يدري فيها آدم ماذا جرى خلالها. كل ما يذكره انه احتضن يدي امه في سيارة الإسعاف الى المستشفى. جلس بصمت في رواق المستشفى ينتظر خروج الطبيب من غرفة العمليات. في الجهة المقابلة جلس والده. لم تلتق عيونهما. كان الخوف على امه يملأ جوارحه. أما الاب فلم تشِ عيناه إلا بالفراغ المشوب بالقسوة. ظل آدم يحدق في الإضاءة الخافتة وألوان الجدران الباهتة متسائلًا في قلق إذا لم تستطع المستشفى إصلاح الأضواء وطلاء الجدران فكيف تستطيع إنقاذ أمه؟ بعد انتظار طويل خرج الطبيب من غرفة العمليات ليعلمهما بالمستجدات، أخبرهما أن العمليات الجراحية في رأسها وعمودها الفقري قد

نجحت وتم انقاذ حياة المريضة لكنها في غيبوبة ولا يعلم أحد متى ستخرج منها، هذا إذا خرجت. تضاربت المشاعر في أعماق آدم لكنه لم يبد أية ردة فعل في تلك اللحظة فقط ظل جالسا في مكانه، في حين أن أباه تقبل الخبر كأنه معلومة عامة لا تمت له بصلة وذهب لتكفل بالأمور المالية وما إلى ذلك.

سافر أبوه مجددا للعمل كان شيئا لم يكن. بينما تغير آدم، أصبح أكثر هدوًا. ربما كان يحاول دفن الجزء الغاضب الذي سبب الأذى لأمه أو ربما لم يعد يرى أي قيمة للغضب. رغم كل ذلك، واظب آدم على زيارة أمه يوميّاً في المستشفى. يجلس قرب فراشها ويحدثها بينما هي في غيبوبة عميقة. كان يعتذر منها ويطلب منها الغفران. يبكي وتسيل دموعه على الملاءة البيضاء التي تغطي جسدها الرقيق. يرى من خلال غشاوة عينيه رمشا عينيها يتحركان. تفتح عينيها ثم تغلقهما. يمسك بيديها ويبتهل الى الله. يعلم في أعماق قلبه انه لن يخذله. فقط يلقنه درساً. بقي آدم وقتاً على هذه الحال. يمر بالمستشفى كل يوم، يعتذر، ينتظر، يتضرع إلى الرب أن تعود شمسه مجددا.

ملاحظات:

الفاملت العدنية: هي قمريات ذات تصميم خاص بمدينة عدن

أما بالنسبة للهجة العدنية فيميل أفرادها إلى إضافة الشين في نهاية بعض الكلمات

اما بالنسبة لكلمة ياته في جملة < مش قلت لك إنه لما نفعل خير لازم ما نأخذ شي عشان يحتسب أجرنا عند الله ولو تشتي حاجة حالي كلمني وأنا بجيب لك ياته لا تكون تأخذ من أحد!! >. لا اعرف كيف اشرح كلمة "ياته" صراحةً فبدلاَ من ذلك سأعطيك امثلة للفهم. يعني هنا في الجملة كانت كلمة ياته تقصد بها الام الحلوى بمعنى سأعطيك الشي الذي سبق ذكره

خبيت لك ياته: خبأت لك الشيء

رحت انا وياته: ذهبت معه